الاغتراب في رواية سواقي القلوب لانعام كجه جي

م. م. نجلاء أحمد حسن
كلية الآداب/ الجامعة العراقية/ قسم الترجمة

الملخص

يُعالج هذا البحث موضوع الاغتراب في رواية سواقي القلوب لإنعام كجه جي، وحاولنا في هذه الدراسة استيضاح الأفكار والمضامين الموجودة فيها وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الوصفي فضلاً عن التأويل للكشف عن مظاهر الاغتراب واشكاله، وما ولده الاغتراب من أزمات فكرية وأخلاقية واجتماعية وسياسية انعكست على شخصيات الرواية، إذ تقدم لنا الكاتبة المحتوى النفسي لشخصياتها وما تمر بها من حالات التشظي والألم والبعد والقلق والخوف؛ لتبيَّن مدى الحالة النفسية والشعورية التي تتولد عند الإنسان المغترب.

كلمات مفتاحية: الاغتراب ، سواقي القلوب، انعام كجه جي.

“Drivers of Hearts” by Inaam Kachaji

Research submitted by M. M. Najlaa Ahmed Hassan
Translation Department
college of Literature / Iraqi University

Research Summary

This research deals with the topic of alienation in the novel “Drivers of Hearts” by Inaam Kajaji. In this study, we tried to clarify the ideas and contents present in it. The study adopted the descriptive analytical approach as well as interpretation to reveal the manifestations and forms of alienation, and the intellectual, moral, social, and political crises that alienation generated, which were reflected in The characters of the novel, as the author presents to us the psychological content of her characters and the states of fragmentation, pain, distance, anxiety, and fear that they go through. To reveal the extent of the psychological and emotional state that arises in an expatriate person.

الاغتراب في رواية سواقي القلوب لإنعام كجه جي

يُعدُّ الاغتتراب ظاهرة إنسانية تجسدت في مختلف جوانب الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والنفسية، وما تتركه تلك الظاهرة على الإنسان من شعور بالألم والضياع وعدم الإنتماء والا معنى، فالفرد يلجأ إلى الاغتراب مرغماً أو مختاراً تبعاً للظروف المحيطة به. فالإنسان أبن بيئته يتأثر بها سلباً أو إيجاباً. ونظراً للأثر الكبير الذي يتركه الاغتراب على حياة الفرد ونشاطاته اكسبه ذلك أهمية كبيرة شغلت عقول الباحثين للغوص فيه والتقصي عنه لاكتشاف خفايا النص ومعانيه المضمرة . وللوقوف على معنى الاغتراب وبيان دلالته نتطرق إلى تعريفه في اللغة والاصطلاح.

الاغتراب لغة

كلمة الاغتراب مشتقة من الفعل (غرب)، وما ذُكر في المعاجم العربية لهذا الاشتقاق ما يأتي:

الغَرْبة والغَرْبُ: النوى والبُعْد، والغُربة والغُرْب: تعني النزوح عن الوطن، والغريب هو البعيد عن وطنه، كما يُقال أغترب الرجل: إذا تزوج من الغرائب، والغرائب: هم الأباعد، ونقول: في الجمع غرباء ، أما الأنثى فنقول: غريبة. (١)

والغَرْبُ: الذهاب والتنحي والمغرب، كما يعني النوى والنزوح عن الوطن، واغربةُ العربِ سودانهم وهم أصحاب البشرة السوداء. (٢)

فبعض المعاني تدل على الغربة والابتعاد والنزوح عن الوطن أي البعد المكاني، والبعض الآخر يحمل الاقصاء الاجتماعي مثل عزل اصحاب اللون الأسود، أو ما يمثل الخروج عن عادات وتقاليد مجتمعية مثل الزواج من غير الاقارب، وعلى اتساع دلالات هذا المصطلح تتنوع مضامينه أيضا.

الاغتراب اصطلاحاً

إنَّ الأصل اللاتيني لكلمة اغتراب هوAlienation ويأخذ هذا الاسم معناه من الفعل Alienare بمعنى تحويل الملكية من صاحبها إلى شخص آخر أو الانتزاع أو الإزالة وهذا الفعل مشتق من فعل آخر هو Alienus أي ينتمي

إلى شخص آخر أو يتعلق به، وهذا الفعل مشتق من صفة نهائية من لفظ Alius الذي يعني الآخر سواء كأسم أو صفة. (٣)

ويعرف هيجل الاغتراب على أنه ((حالة اللاقدرة أو العجز التي يعانيها الإنسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومنتجاته وممتلكاته، فتُوظّف لصالح غيره بدل أن يسطو هو عليها لصالحه الخاص. وبهذا يفقد الفرد القدرة على تقرير مصيره والتأثير في مجرى الأحداث التاريخية بما فيها تلك التي تهمه وتُسهم بتحقيق ذاته وطموحاته)) (٤)

أما ماركس فقد طبق مفهوم الاغتراب على العمل فالإنسان يغترب عن عمله عندما لا يشعر بأن هذا العمل يعكس توجهاته وشخصيته بل يقبع تحت سيطرة شخص أخر وهو ما يبتر العلاقة بين الشخص وعمله. (٥)

ويرى سارتر أن الاغتراب عن الذات ما هو إلا نتيجة للظروف التي يعيشها الإنسان في هذا العالم الذي يتصف بالعبثية؛ لأن الاغتراب يعني استلاب حرية الإنسان، ورؤية الآخرين في منظوره عامل من عوامل الاغتراب الفردي، والظلم والاستبداد والاستعمار كلها من عوامل الاغتراب الجمعي. (٦)

ويؤكد فرويد على ضرورة إعادة النظر في جوهر تلك الحضارة التي وضعت قيمتها بصفتها مصدراً للسعادة موضع تشكيك، فعلى الرغم من أن الانسان هو من صنع الحضارة تحت وهم الكمال إلا إنها تتحمل تبعية شعوره بالبؤس والعناء، من خلال ممارستها الكبت على مشاعره وغرائزه الطبيعية إذ لا يمكنه إشباعها أو حتى تحررها بسبب ما تفرضه قيود الحضارة فضلا عن قيود الأنا العليا وبذلك يكون اللاوعي هو نظرية الاغتراب في مدرسة التحليل النفسي. (٧)

إن المعنى الاصطلاحي للاغتراب هو يمثل العجز وفقدان السيطرة، وعدم القدرة على تحديد المصير، وهو استلاب للحرية والظلم، وفرض القيود المفروضة على الفرد سواء أكانت من المجتمع لخضوعه إلى قواعد الحضارة، أو قيود الأنا العليا التي تكبت عنه حرية غرائزه الطبيعية .

وفي رواية سواقي القلوب لإنعام كجه جي* تتجسد مظاهر الإغتراب المختلفة ومعاناة أبطالها من أحداث تجعلهم يحملون الألم والعجز والبعد عن

الـوطن والأهـل ، فاقتضـت الروايـة المدروسـة إلـى أسـتنطاق بعـض المضـامين الواقعية بغية تحليل المواقف الإغترابية وتأويلها.

الاغتراب العاطفي

تميـل الأنـا بطبعهـا إلـى العزلـة التـي تشـكل تهديـداً دائمـاً، ولكـن الانـا تعمـل علـى تنميـة قـدرتها بالسـعي المتواصـل للتغلـب علـى عزلتهـا، بشـرط ان تحـتفظ بخصائصـها وحريتهـا مـن جهـة، وأن تعلـو علـى نفسـها مـن خـلال الـتلاحم بـ أنـا أخـرى تفهمهـا مـن جهـة أخـرى، وبعكـس ذلـك يكـون الإنعطـاف نحـو الآخـر السلبي سبيلاً في تعمق العزلة. (٨)

وقـد يكـون الإنفصـال العـاطفي نتيجـة ظـروف خارجيـة قـاهرة تحـول دون التواصـل بـين الطـرفين، وهـذا مـا حـدث فـي علاقـة بطـل الروايـة بمحبوبتـه نجـوى إذ فرقتهمـا الظـروف التـي فرضـت عليهـا بـأن تمتثـل لـرأي أبيهـا مـن الـزواج برجـل غنـي(٩) الأمـر الـذي جعلـه يشـعر بالحسـرة والألـم والحـزن لفـراق محبوبته.

ولـم تفـارق البطـل صـورة نجـوى بـل بقيـت فـي مخيلتـه، وكـان يمنـي الـنفس بـأن تتصـل بـه ويتخيـل أنهـا تطلـب الرجـوع لـه وتـرك زوجهـا وتبكـي عنـده طالبـة قربـه، وبالفعـل كانـت تهاتفـه لكـن لـيس كمـا كـان يرجـو بـل مـن اجـل أبنهـا، فيصاب بخيبة أمل أخرى(١٠)

هـا هـي نجـوى تعـود لتفـتح جراحـا لـم تلتـأم بعـد، كنـت أحـاول التـدرب علـى ذلـك النسـيان لكنهـا تعـود مـرة أخـرى لأرى صـورتها بأبنهـا الـذي أرسـلته إلـى فرنسا من أجل العلاج. (١١)

((هـا هـو ابنهـا الـذي هـو قطعـة منهـا، يهـبط علـيَّ فـي أرض ابتعـادي ويضـعني، مجـدداً، أمـام الفشـل الأفـدح فـي حيـاتي. سـأنظر إليـه وسـأراها، وسـيحدثني وسأسـمعها، وسـيروي لـي خطـط مسـتقبله فأتـذكَّر خيبـة ماضـيَّ، وسـأنكمش كمـداً وأنـا أتخيـل لـو أن الأمـور أخـذت مجراهـا الطبيعـي، لكـان هـذا الرجـل الصـغير أبنـي... أبـن نجـوى وأبنـي)) (١٢) فالشـعور بـالقهر والحسـرة والخيبـة لأنـه لـم يحقـق ذاتـه ووجـوده بالتواصـل مـع محبوبتـه التـي كـان يراهـا نصـفه الآخـر المكمـل لـه، ((وعـادة مـا يـتم اكتشـاف دلالـة الوجـود مـن خـلال

((الحب)) فمن خلال ((الحب)) يتم عادة تعبير الإنسان بالعثور على معنى وجوده، وفي ضياع هذه العاطفة، ضياع للوجود بالنسبة له)).[١٣]

كما أنَّ علاقة بطل الرواية بصديقته سوزان الفرنسية كانت علاقة سلبية مما جعله يجدد خيباته العاطفية إذ لم يجد فيها ما يعوض فراق نجوى، ولم تكن لتلتحم بروحه وجسده مثل باقي العشاق فتأزم الوضع بينه وبينها إذ((لم تكن المشكلة في اللغة أو في قلة الاهتمام، بل في شقاقات كثيرة، ما عادت العلاقة الجسديَّة المحمومة كفيلة بترميمها، ولا عاد الجسد نفسه يستجيب للنداء)). [١٤]

إنَّ من الطبيعي لأي علاقة قائمة على الحب والتفاهم إن حدث فيها منغصات سرعان ما يبادر الطرفان في التفكير بالرجوع إلى الود وترك الخلافات التي قد تؤدي إلى الفراق هذا إن كانت العلاقة بين الطرفين ايجابية وهي ما يطلق عليها علاقة مكملة لكل من الطرفين، لكن علاقة البطل بسوزان كانت هشة لذلك لم يتأثر برحيلها إذ يقول:((لقد هجرتني.

وكرهت نفسي، لحظة ذاك، لأنني لم أصدم لذهابها، بل لم أحزن أو أكتئب. وبدل الحزن زحف نمل الارتياح على صدري وغمرني حتى أذني)) [١٥] فتركه لها جعله يشعر بالإغتراب عن ذاته إذ يحدث الإغتراب نتيجة((تحول المرء إلى الشعور بالخجل مما هو عليه-بالخجل من مشاعره وموارده وأنشطته وتحوله إلى الشعور بكراهية الذات)) [١٦]

ويأتي منعطف آخر للبطل ومغامرته الجديدة مع سراب التي تزوجها وتعرف عليها في بلاد الغربة وهي عراقية من بغداد وحبه لها جعله يشعر بالإيجابية والبهجة((تملكني حبٌّ سراب حتى حوَّلني إلى إنسان سعيد ومجد وعكفت على ترجمة مسرحية لمارغريت دوراس فانتهيت منها في وقت قياسي...ولن يستطيع أحد أن يسبر عمق رضاي عن نفسي بعد ذلك الإنجاز إلا من مر بسنوات من التعطل والفراغ، وبلغ به الأمر حدَّ الشك في فحوى مجيئه إلى الدنيا)). [١٧] لقد حوله حبها إلى إنسان متفائل ومحب للحياة وغمرته السعادة بعد جراح وعزلة دامت لسنوات، لكنه يعود إلى أغترابه مرة أخرى بسبب الموت الذي أفقده حبيبته((وتطول بي الليالي وتتصل بالنهارات فلا أعرف كيف أنام ومتى أصحو)) [١٨] فأصبح لا يشعر بالأيام وتمكَّن منه الحزن فانتكس وفارقته السعادة مع فراق زوجته.

لقد أراد البطل أن يخرج من عزلته واغترابه بعد أن ظل لسنوات عديدة يعاني من فشله في الارتباط من محبوبته الأولى نجوى، وفشله في علاقته بسوزان الفرنسية وتركها له، ثم حبه لسراب التي تزوجها قبل أن يسلبها الموت منه فيعود إلى دوامة الإغتراب مرة أخرى وهو في تجاربه العاطفية ظلت نجوى الظل الذي لا يغادره((ليتك توقظينني، يا نجوى، من الآن حتى آخر عمري، وتسرقين نومي غير مأسوف عليه هل تصدقين أنَّ صوتك ما زال يفعل بي العجائب بعد كل هذه السنين)) [١٩].

إذن الاغتراب العاطفي يولد نتيجة الحب المقترن بالفشل والخيبة والألم والحرمان تبعاً للتكوين النفسي والاجتماعي والظروف التي تحيط بالفرد[٢٠] فأصعب أنواع الغربة تلك التي تؤدي إلى الحنين الطاغي لدى الإنسان إلى المؤلوفات المادية والشعورية التي رحل عنها مرغماً وفي الغالب تكون هذه الغربة مكانية أو زمانية أو روحية وهي تنتج بظروف قهرية تُفرض على الإنسان فتجعله يفقد تواصله مع مألوفاته الروحية التي عايشها وترعرع في بيئتها الملتصقة بقلبه وروحه[٢١] والبطل عانى من مشاعر الألم والفراق والفقد وحبه لنجوى ظل يطارده بشبح الاغتراب غير منفك عنه .

الاغتراب الاجتماعي

يُعرف بعضهم الاغتراب بأنه عملية صيرورية تتكون من مراحل ثلاث متصلة فيما بينها، فالمرحلة الأولى تنتج من وضع الفرد في بنائه الاجتماعي، والثانية تمثل وعي الفرد، والثالثة تعكس تصرفه كأنسان مغترب على حسب الخيارات المتاحة له. [٢٢]

تعيش شخصيات الرواية في اغتراب اجتماعي بين رفض المجتمع او البعد عن الأهل وفقدهم أو الخروج عن عادات وتقاليد مجتمعية، وكلهم يمرون بإرهاقات النفس ألتي تدفعهم إلى الشعور بالوحدة والاغتراب.

عانت كاشانية من الفقد إذ لم تمكنها الظروف من العيش وسط عائلتها فوجدت نفسها في بيت غير بيت أهلها((عشت عزيزة في بيت أمي المسلمة الطيبة التي تعرف الله ولا تفرق بين عباده، وكنت أفرش لها السجادة في مواعيد الصلاة وأصوم شهر رمضان مع الأسرة كلها، لكني لم أنسَ ديني)). [٢٣]، كانت تعاني من الحسرة والاغتراب وهي تعيش وسط عائلة ليست

عائلتها الحقيقية فمهما اغدقوا عليها من الحنان تبقى تعاني من حسرة العيش في ظل كنف والديها .

كانت لكاشانية بنت تعيش في كندا، وحينما يسألها البطل عن أسمها ترد عليه: لا أسم لها. هي أبنة عاقة. [٢٤] هكذا تفعل بنا الغربة فتخلع أهالينا تكسونا بأهل وأخوة من غير أمهاتنا. [٢٥]

فكاشانية تعاني من الاغتراب في مكانها الذي عاشت به مع أناس لا تصلها بهم قرابة دم ولا دين وإن كانوا يحسنون معاملتها، في حين أن أبنتها من لحمها ودمها لا ترى منها سوى الجحود فحملت معها الألم والفقد مرة أخرى من إبنتها العاقة بها.

أما ساري فقد كان في صراع دائم مع مجتمعه الذي كان ينظر إليه نظرة دونية، وبسبب اختلافه عنهم كان يشعر بالاغتراب وسطهم، فساري الجندي الذي تحول إلى سارة بعد أن أجرى عمليته في باريس((كانت تلك الليلة آخر عهد ساري بالرجولة التي التصقت به زورا وبهتاناً)) [٢٦] لقد جلب العار لأمه ولعائلته وهي كانت تحلم بأن يصير رجلاً يعتمد عليه في بيت العائلة الأنوثي فهو الولد من بين ثلاث بنات.

فساري قد آثر الهروب من جسده الذكوري الذي كان يشعر بالغربة معه ليتصل بجسده الأنثوي الذي يمثل جوهر ذاته بحكم طبيعته الساكيولوجية، لكنه ظل في نظر مجتمعه غريباً لا يحمل سوى العار والدونية.

فالاغتراب الاجتماعي هو الذي يكون بين الفرد وبنية مجتمعه، جراء تأزم العلاقة بينهما وتحولها إلى تعارض بعدما كانت متحدة ومتطابقة، فاصبحت البنية الاجتماعية بعيدة وغريبة عنه. [٢٧]

إنَّ عنوان الرواية الذي يحمل المثل الشعبي (سواقي القلوب) يجسد الاغتراب فقلوب ابطال الرواية تتآلف فيما بينها وتتعلق بعضها ببعض وتتعانق إذ وردت هذه العبارة على لسان ابطالها إذ تقول سراب للبطل/ السارد حينما تبادلا باقة زهور تحمل اللون نفسه وأجابت عن استفساره((ألا تعرف أنَّ القلوب سواقٍ... تتناءى ثم تتلاقى وتصب في مجرى واحد؟)) [٢٨]، في المقابل كان الرد مشابها في موضع آخر عندما كشفت له كاشانيةعن آلامها الدفينة((ألم تسمع أن القلوب سواقٍ؟)) [٢٩] هذا التشابه بين

القلوب يجمعه الاغتراب فكل واحد منهم يحمل في قلبه الألم والغصة والوجع في بعده عن الأهل، والتقارب بينهم يجمعه الوطن الذي اغتربوا عنه مكرهين.

الاغتراب السياسي

تتحدث الروائية عن أحداث واضطرابات مر بها العراق خلال فترات كانت صعبة على الشعب العراقي، فضلا عن أحداث دولية تجسدت في قلب قوى كانت تتصدر المشهد السياسي وما عكسته تلك الاضطرابات من تبعات نفسية واقتصادية واجتماعية قاسية كانت السبب في اغتراب الكثير.

تتفاقم شدة الاغتراب مع ما تتعرض له شخصيات الرواية من ألم وحسرة على من فقدوهم من أحبابهم، فكاشانية تولد فاقدة لأبيها وأخوتها جراء مذبحة أرتكبها الأتراك ضد الأرمن، مما جعلها تكره كل شيء يذكرها بهولاء الأوغاد حتى أسماء طبخات طعامهم. (٣٠) فيغادر من نجا منهم ليستقروا في العراق، وتولد كاشانية في مدينة الموصل وتعيش في كنف أحد عوائلها. (٣١) ، ثم تسكن مع زوجها في بغداد بعدها يغادران إلى باريس. (٣٢)

هذا الترحال القهري الذي عاشته كاشانية تسبب لها بجروح عميقة أصابت الروح قبل الجسد فالواقع السياسي الذي فُرض عليها وهي في بطن أمها، وما عاشته من أيام بعد ذلك كان كفيلا بجعلها مغتربة تعاني من صراعات نفسية تشمل التوتر والقلق والخوف الذي يُجسد((حالة إنسانية نفسية إجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقعه الاجتماعي))(٣٣)

أما اغتراب البطل/ السارد فكان فارّاً من بلد يطال كل مُعارض ويزجه في السجون التي تكون نهايتها معروفة بالموت المؤكد ويصف ذلك الرحيل عن وطنه ((في ليلة سوداء، أحمل في متاعي الخفيف الهموم الثقال لأولئك الذين خلّفتهم ورائي... يمضغون المر)) (٣٤)

إنَّ إنفصال البطل عن توجه السلطة التي تقمع كل فكر مغاير لفكرها، هو ما جعله يفكر بالرحيل وترك وطنه الذي يجب أن يكون الأمان والراحة لأبنائه، فتحول إلى كابوس يطارد أهله بسبب من ترأس السلطة((وطننا الذي كان بيت الأمان يُدعى لكنَّنا جعلنا منه مغارة للُصوص)) (٣٥) ((إنَّ أشدَّ أنواع الاغتراب إيلاماً هو الاغتراب في الوطن؛ لأنَّ الإنسان ينشد الأمن والحماية

والحياة الكريمة في وطنه وبين أهله، فإن أخفق في توقعاته، وظلمه أهله وأبناء قومه تمرد عليهم وعلى ما يؤمنون به)) (٣٦)

إنَّ الغربة عن الوطن هي ابتعاد الإنسان قسراً عن أرضه التي هي موطنه الأصلي فاضطره القهر أن يعيش بعيداً عن وطنه، ويعاني من مرارة الغربة لأن طموحه يُخالف ما هو كائن في وطنه من قمع للحريات. (٣٧) وهذا ما كان يعاني منه بطل الرواية فهو يرصد مراراته وبعده عن الوطن ويحكي بلسانه ولسان من تعرف عليهم في بلاد الغربة الذين كان يجمعهم هم واحد وهو الاغتراب عن الوطن والألم والحزن الشديد الناتج عن البعد.

أما زمزم فقد كان هو الآخر مغترباً فبعدما كان في كنف حزبه مبتعثاً لأكمال الدكتوراه في باريس على نفقة الدولة قررت الدولة أن تنهي ابتعاثه بعد ترقين قيده وإنذاره بالرجوع إلى القطر لأنه استوفى الفترة المحددة للدراسة. (٣٨) ولم يكن ذلك فحسب بل فصلوه من الحزب بعد أن رفض أعطاء صوته للقائمة التي نزل بها الرفاق في انتخابات الطلبة. (٣٩) لقد سلبت الدولة زمزم حلمه الذي كان يحلم به بأن يحصل على شهادة الدكتوراه، فجعله ذلك يشعر بالغضب والنقمة على السلطة.

ما جعل زمزم يمتعض من السلطة أمر فصله من الحزب لأنها كانت ترفض كل من يعترض على قراراتها وهذا ما حصل معه بعد رفضه لمرشح انتخابات الطلبة فما كان جوابهم إلا بالعبارة المشهورة التي يرددونها((نفذ ثم ناقش)) (٤٠) هذه العبارة تبين مدى تغييب المواطن عن حقوقه في أخذ مساحة من الحرية في اختيار ما يراه مناسباً فلا توجد حرية وأنما تسلط يجبر المواطن على تنفيذ كل ما تصدره من أوامر.

إنَّ الخوف من السلطة سلب زمزم عقله وجعله يرى كل من في الشارع هو جاسوس ينوي الإطاحة به((بدأ يحدثني عن أشخاص يراقبونه ويتتبّعونه في الطريق ويجلسون، قبالته، في عربات المترو، ثم ينزلون وراءه ويختفون في ظلام الأزقة)) (٤١) . إنَّ شعور الخوف وهواجس القلق الذي مرَّ به زمزم هو الذي جعله مغترباً إذ أنَّ((انتماء المواطن لمجتمعه مرهون بمدى حصوله وتمتعه بحقوقه الإنسانية والاجتماعية التي أبرزها شعوره بالأمن والحرية والعدالة، وفي المقابل فإنه يشعر بالعزلة/الاغتراب عن مجتمعه إذا ما فقد هذه الحقوق)). (٤٢)

((أيُّ أعمى قلب ذاك الذي اخترع الأحزاب وأوقعنا في حبائلها؟)). [٤٣]

هناك قاسم مشترك بين البطل وبين زمزم إذ كل منهما ينتمي إلى حزب وكل واحد منهما كان يؤمن بحزبه، لكن ما حدث مع زمزم وطرده من حزبه جعله يقذفهم بالشتائم في المقابل كل ما وجه زمزم من إنتقاد لحزبه كان يعكس صورة حزب البطل الذي ينتمي له((كنت أستمع إلى زمزم واخاله يحكي عن حزبي لا عن حزبه)) [٤٤]، لذلك شعر الإثنان بشعور واحد وهو الاغتراب عمّا كانا يظنان ويعتقدان به.

لا زالت المشاهد الحزينة مستمرة التي كان المسؤول عن أحداثها السلطة الحاكمة فقد أدخلت المواطنين في حروب أخذت شبابهم وعم الحزن في بيوتهم((تلقّى زمزم مكالمة من أبيه الحاج أبلغه فيها انَّ أخاه الأوسط، جمال، قد استشهد في جبهة الفاو، ودعاه إلى العودة إلى البلد، بسرعة لضرورة وجوده وسط الأسرة المفجوعة)) [٤٥]

كان لمشهد فقد زمزم أخيه أثر كبير على اغترابه وتأزم حالته النفسية إذ((صار كالأسد الحبيس، دمعه عصي وغضبه كظيم، ينظر إلى الأفق من النافذة ويتخيَّل مثلما نتخيَّل، أفواجاً تمشي إلى حتوفها، وأرامل ويتامى يقبضون ديَّة دم الشهيد الأمر من العلقم ويلعنون في السر، من كان السبب)) [٤٦] بل كان ذلك الحزن والجو الكئيب يخيم على كل عراقي فقد أحد أفراد أسرته في هذه الحرب الرعناء التي كان المواطن وقودها. وهذا أمر طبيعي لأن الاغتراب يجسد ((قلقاً إنسانياً بسبب ما يعيشه من ظروف متطورة يمر بها المجتمع الإنساني، نتيجة للحروب والصراعات الطويلة)) [٤٧]

حتى عظام سراب، أليفة الحمام وأزهار الرازقي، كانت قد طُحنت في أحد دهاليز الوطن، ففي سجونه قد تناوب على هتك عرضها أربعة من رجال الدولة حتى فاضت الغرفة بدمائها [٤٨] كانت السلطة تتفنن في تعذيب معارضيها، فلا تكترث لهتك عرض ولا موت أحد كل هذه الأحداث تجعل الفرد يعيش الغصة والكبت وسراب كانت تعاني من صراع العذاب الذي أخذته معها إلى بلاد الغربة.

كان لسراب اسم غير اسمها أخبرتني به وهي في اللحظات الأخيرة من حياتها هو (روزا سمعان) أما سراب فهو اسمها الحركي المكتوب في جواز سفرها المزور الذي غادرت به العراق إلى الكويت [٤٩]

لقد غيرت سراب أسمها خوفاً من أن تطالها يد السلطة بعد هروبها من السجن فعرفت بأسم غير اسمها غريب عنها عاشت الاغتراب ليس عن وطنها فحسب بل غيبت السلطة اسمها الذي هو رمز من رموز هويتها.

أما سارة فلم تفلت من مضايقة السلطة لها إذ طلبت السفارة العراقية منها أن تكون جاسوساً لهم لملاحقة زمزم المفصول عن حزبهم فتجيب عن سؤال البطل بعدما أخذ يشك فيها ((-طلبوا منك تقارير عن زمزم

-لم يطلبوا تقارير...بل أعطوني جهازاً بحجم علبة الكبريت وعلّموني كيف أسجّل له أحاديثه...هنا في بيتك)) (٥٠)

كانت السلطة تلاحق كل من يعارضها وتطالهم حتى وان كانوا في بلاد أخرى وتستخدم كل الوسائل من أجل معرفة تحركاتهم، سلطة تُضيَّق الخناق على مواطنيها وتخوفهم لتجبرهم على الخضوع لها. وتجند من تريد من أجل الوصول إلى مبتغاها وإن رفض أحدهم إتباع أوامرها كان عقابه الموت وهذا ما حدث لسارة نتيجة رفضها التعاون معهم.

وُجدت سارة مرمية في غابة بعد أن تمَّ خنقها بوشاحها في مكان ترتاده العاهرات من أجل التمويه عن الجريمة(٥١) أرادت سارة أن تعيش بسلام في بلاد غير بلادها لكنها لم تعلم بأن الموت يلاحقها ليفني كل أحلامها.

على الرغم من الظروف الصعبة التي فيها البلاد إلا أنَّ ذلك لم يمنع البطل وكاشانية من التفكير في الرجوع إلى الوطن، فما عادت أرواحهم تستقر في بلاد الغربة((تنفض الغربة من غبار الذكريات وذرَّات المألوف، وتدخلنا إلى حمَّام التخفُّف، فنخرج وقد انعجنَ الغبار وتكتَّل وصار حصى يملأ منَّا الجيوب)) (٥٢)

عاد البطل وكاشانية إلى العراق ومعهما جثة سارة تلك الرحلة المحملة بالعذابات والآهات والحنين الكبير لبلد ضيَّعه الأوغاد بلد متعب من كثرة الجراحات التي أحاطت به من كل صوب.

تبدأ الرواية وتنتهي بدخول البطل وكاشانية إلى أرض الوطن يحملون معهم جثمان سارة التي قُتلت في فرنسا ويدور بين البطل وكاشانية حوار يتعلق بعودتها إلى الوطن فهي تريد أن تموت في ترابه((أريد أن أمضي ما تبقى لي من عمر في أرض مشمسة، وإذا مُتُّ أُدفن عراقيَّة)) (٥٣) قلت لها محذرا وظننت أن خرفاً إعتراها ولم تعد تدرك ما تفعل أتعرفين إلى أي

عراق سنعود؟ أعرف إلى عراق مظلم يلتهم ناسه الحصى ويشربون المياه الآسنة، سنجوع معهم ونشرب مما يشربون حالنا من حالهم. (٥٤) صورة اختصرتها كاشانية عن بلد دمرته الحروب وخيَّم على أهله الشعور بالضياع والقهر بسبب استبداد السلطة، وفقدان الأمل.

إنَّ الحوار الذي جرى ما بين البطل وبين ضابط شرطة الجوازت العراقية الموجود على الحدود العراقية- الأردنية، أثار غضب البطل من ذلك الضابط وهو يوجه الأسئلة بطريقة استفزازية متى غادرت البلاد؟ وعند سماعه لجوابي نظر لي نظرة لؤم وقال ببرود:

أمضيت في الخارج، أجمل أعوام شبابك، التي هي أتعس أعوام شبابنا(٥٥) إنَّ من يمثل السلطة هنا هو الضابط الذي يمارس دور التحقيق بطريقة تحقق الضرر بالاشخاص العائدين من الخارج، في المقابل هو أيضاً كان يعاني من قهر السلطة التي لم يستطع الفرار من سطوتها فأُجبر على البقاء في الوطن، فأصبح يمارس دور المنتقم على القادمين من خارج البلاد وكأنهم السبب في وجوده وسط هذا العذاب.

لم أعرفِ بمَ أردُّ عليه ولا كيف أكف تحرشه المهين عني، وضعوه في هذا المكان ليمارس تقريع العائدين من الخارج الذين لم يلبسوا البسطال مثلما لبسه هو طواعية أو بالاكراه، ولم يسمعوا صوت القنابل التي قتلت الكثير. (٥٦) لم يتوقف الحوار المهين بين البطل وضابط الحدود، بل زاد قسوة وذلة أوقفهم لساعات طويلة وأخذ يتمعن في جواز البطل المتأمل بختم جوازه لكن كان العكس فأخذ يمارس سطوته عليهم ويحاول تأخيرهم بحجة الجواز ليس فيه ختم وتارة أن الجواز نافذ الصلاحية منذ سبع سنوات (٥٧)

يستمر تصعيد الأذى الذي يمارس ضد بطل الرواية لكنه يحاول أن يمسك نفسه ويتحلى بالهدوء إذ كان يتوقع أنه سيواجه الإذلال والمهانة وقلة الأدب، يتحمل مرارات الوقوف على باب وطنه الأم، ويستعطي الدخول إلى مسقط رأسه. (٥٨) عندما يكون من الصعب الدخول إلى وطنك الذي ولدت فيه تشعر بالأسى والأقصاء وكأنهم يريدون أن يدفونك في الحياة وينكرون عليك عودتك إلى وطنك لم يكفيهم مرارات تغربك عن ترابه فأرادوا أن يقضوا على آخر أمل تلمس فيه تراب وطنك.

عكست شخصية الشرطي السلطة فهو يمثلها ويمارس التعسف ضد المواطن المضطهد، فالشرطي هنا يخالف ما يمثله دوره الطبيعي الذي وجد من أجله وهو حفظ الأمن وتطبيق القانون لكن ما نراه في الرواية هو شعور المرء بالاغتراب لفقدانه الأمن داخل مجتمعه وأقسى أشكال الاغتراب عندما تشعر بالرهبة والخوف ممن يكون واجباً عليه توفير الحماية لك.

لم يخلو المشهد من ذكر أوضاع البلد التي اختزلها زمزم بالجحيم إذ تحول العراق إلى جحيم، فالقذائف لا زالت آثارها على الاسفلت، والكابينات منهارة، وغرف الأمن مهجورة تسكنها القطط السائبة والمصارف مسلوبة.[٥٩] فالبطل/ السارد يروي وهو يتأمل وضع البلاد ويصور خيباته وتأسفه على ما صار عليه البلد من دمار وخراب وأموال منهوبة مما عمق الشعور بالاغتراب.

الخاتمة

يقع الاغتراب على معان متعددة، تبعاً لتنوع الحالات وتعددها، وهذه المعاني لا تخرج عن نطاق المعاناة الذاتية للانسان، والاغتراب حالة معروفة في جميع العصور يعيشها كل من مر بحالات خاصة تكتنفها أحوال من المعاناة[٦٠] وتكثر في رواية سواقي القلوب إرهاصات الاغتراب المتنوعة منها العاطفية التي تتحدث عن معاناة الشوق والألم والبعد المكاني، والحنين للماضي، وما تجلب تلك المعاناة من إثار وتقلبات نفسية تنعكس بشكل سلبي على أصحابها، وفي الاغتراب الاجتماعي ما يجسد القضايا التي تمس المجتمع المعاصر والتي يكون لها تأثيير عميق يغيَّر فكر وتوجهات الأفراد ، ثم يتبعها الاغتراب السياسي الذي يتناول القهر والاضطهاد والإذلال الذي تمارسه السلطة على مواطنيها.

المصادر والمراجع

أولاً:الكتب:

- الاغتراب،ريتشارد شاخت،ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط١، ١٩٨٠م.
- الاغتراب الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، د. فيصل عباس،دار المنهل اللبناني،بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
- الاغتراب في تراث صوفية الاسلام دراسة معاصرة،د.عبد القادر موسى المحمدي، بيت الحكمة، بغداد،ط١،٢٠٠١م.
- الاغتراب في شعر أمجد ناصر،نسرين محمود الشرادقة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع،اربد، ط١،٢٠١٢م.
- الاغتراب في شعر سعدي يوسف قراءة ثقافية،د. رضا عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٨م.
- الاغتراب في الشعر العراقي في القرن السابع الهجري، د. أحمد علي إبراهيم، دار الكتب والوثائق، بغداد، ٢٠١٢م.
- الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري(دراسة اجتماعية نفسية)، د.أحمد علي الفلاحي، دار غيداء، ط١، ٢٠١٣م.
- الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، د. محمد راضي جعفر، دار المعتز، الأردن- عمان، ط١، ٢٠١٣م.
- الاغتراب في شعر نازك الملائكة، د. ساجدة عبدالكريم خلف التميمي، دار غيداء، عمّان-الأردن، ط١، ٢٠١٧م.
- الاغتراب والإبداع الفني،د. محمد عباس يوسف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- الذات في مواجهة العالم تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

- سواقي القلوب، إنعام كجه جي، منشورات تكوين، الكويت، الرافدين، العراق، ط٣، ٢٠٢٢م.
- شعرية الاغتراب دراسة في شعر محمد القيسي،د. عمر العامري، خطوط وظلال، عمّان- الأردن، ط١، ٢٠٢١م.
- ظاهرة الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العباسي الأول، د. فتحي إرشيد محمد شديفات، دار الخليج، عمان- الأردن، ط١، ٢٠١٨م.
- ظاهرة الغربة والحنين في الشعر العربي، د. صبيح الجابر، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ط١، ٢٠١٣م.
- الغربة في شعرمحمود درويش١٩٧٢-١٩٨٢، أحمد جواد مغنية، دار الفارابي، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، م١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
- لسان العرب، أبن منظور، ج١٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

ثانياً:الدوريات:

- التقديم السينمائي للأحداث في رواية الحفيدة الاميركية لإنعام كجه جي، مجلة سر من رأى، المجلد:(١٢)، العدد:(٤٥)،٢٠١٦م.

الهوامش

(١) ينظر: لسان العرب، أبن منظور، مادة(غرب)،م١٠/ ١٣٢-١٣٣.

(٢) ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، م١/١٠٩-١١٠ .

(٣) ينظر: الاغتراب، ريتشارد شاخت، ترجمة: كامل يوسف حسين: ٦٣ ،ينظر: شعرية الاغتراب دراسة في شعر محمد القيسي،د.عمر العامري:١٤-١٥.

(٤) الاغتراب في شعر سعدي يوسف قراءة ثقافية، د. رضا عطية: ٢٠ .

(٥) ينظر: الاغتراب، ريتشارد شاخت: ٦٤ .

(٦) ينظر: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري(دراسة اجتماعية نفسية)، د. أحمد علي الفلاح: ٢٢.

(٧) ينظر: الاغتراب والإبداع الفني، د. محمد عباس يوسف: ٨، ينظر: الذات في مواجهة العالم تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، د. أميرة علي الزهراني:٣٢-٣٣ .

* كاتبة وروائية ولدت في العاصمة بغداد سنة ١٩٥٢، درست الصحافة وعملت في مجال تخصصها في الصحافة واذاعة العراق، وانتقلت إلى باريس لأكمال دراسة الدكتوراه في جامعة السربون، وتعمل حالياً مراسلة لجريدة الشرق الأوسط في لندن ومجلة كل الأسرة الإماراتية، أما مؤلفاتها فقد أصدرت كتاباً حمل أسم المراسلة البرطانية لورانا هيلز المتزوجة من النحات والرسام العراقي جواد سليم، وأعدت فلما وثائقياً عن أول وزيرة عربية وهي الدكتورة نزيهة الدليمي إذ شغلت المنصب في عام ١٩٥٩، أما رواياتها فهي(سواقي القلوب، والحفيدة الأميركية، وطشاري، والنبيذة) . ينظر: التقديم السينمائي للأحداث في رواية الحفيدة الاميركية لإنعام كجه جي، مجلة سر من رأى، المجلد:(١٢)، العدد:(٤٥)،٢٠١٦م،:٣٢٩.

(٨) ينظر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، محمد راضي جعفر:٦١.

(٩) ينظر: سواقي القلوب، إنعام كجه جي:١٧.

(١٠) ينظر: المرجع نفسه:١٧-١٨.

(١١) ينظر: المرجع نفسه:٢٨.

(١٢) سواقي القلوب:٢٨.

(١٣) الذات في مواجهة العالم تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية:١٤٠.

(١٤) سواقي القلوب:٣٣.

(١٥) المرجع نفسه: ٣٣-٣٤.

(١٦) الاغتراب:٢٠٦.

(١٧) سواقي القلوب:٤١.

(١٨) المرجع نفسه:٧٥.

(١٩) المرجع نفسه:١٤٥.

(٢٠) الاغتراب في الشعر العراقي في القرن السابع الهجري، د.أحمد علي غبراهيم:١١٠.

(٢١) ينظر: ظاهرة الغربة والحنين في الشعر العربي،د. صبيح الجابر:٥.

(٢٢) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر:٤٥.

(٢٣) سواقي القلوب:٢٣-٢٤.

(٢٤) ينظر: سواقي القلوب:١٦.

(٢٥) ينظر: المرجع نفسه:٢٥.

(٢٦) ينظر: المرجع نفسه:٨٢.

(٢٧) ينظر:الاغتراب في شعر أمجد ناصر، نسرين محمود الشرادقة:٢٥.

(٢٨) ينظر: سواقي القلوب:٤٨.

(٢٩) ينظر: المرجع نفسه:١١٥.

(٣٠) ينظر: المرجع نفسه:٥٨.

(٣١) ينظر: المرجع نفسه: ١٩.

(٣٢) ينظر: المرجع نفسه:١٨-١٩.

(٣٣) الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر في القرن السابع الهجري:١٩٤.

(٣٤) سواقي القلوب:١٢.

(٣٥) المرجع نفسه:٥٣.

(٣٦) ظاهرة الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العباسي الأول، د. فتحي إرشيد محمد شديفات:٣٨.

(٣٧) ينظر: الغربة في شعر محمود درويش ١٩٧٢-١٩٨٢، أحمد جواد مغنية:١٩.

(٣٨) ينظر: سواقي القلوب:٥٢

(٣٩) ينظر: المرجع نفسه:٩٠

(٤٠) المرجع نفسه:٩٠

(٤١) المرجع نفسه:٩٦.

(٤٢)الذات في مواجهة العالم تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية:١١٠-١١١.

(٤٣) سواقي القلوب:٩١.

(٤٤) المرجع نفسه:٩١.

(٤٥) المرجع نفسه:١٣٥.

(٤٦) المرجع نفسه:١٣٥.

(٤٧) الاغتراب في شعر نازك الملائكة، ساجدة عبد الكريم خلف التميمي:٣٤-٣٥.

(٤٨) ينظر: سواقي القلوب:٥٣.

(٤٩) ينظر :المرجع نفسه: ٥٣.

(٥٠) المرجع نفسه:١٥١.

(٥١) سواقي القلوب:١٦١.

(٥٢) المرجع نفسه:٢٥.

(٥٣) المرجع نفسه:١٦٣.

(٥٤) ينظر: المرجع نفسه:١٦٣.

(٥٥) ينظر: سواقي القلوب٩.

(٥٦) ينظر: المرجع نفسه:١٠.

(٥٧) ينظر: المرجع نفسه:١٦٤.

(٥٨) ينظر: سواقي القلوب:١٦٤-١٦٥.

(٥٩) ينظر: المرجع نفسه:٨-٩.

(٦٠) ينظر: الاغتراب في تراث صوفية الاسلام دراسة معاصرة،د.عبد القادر موسى المحمدي:١٤.